سمات وخصائص
فكر السيد محمد باقر الصدر قدس سره

المدرس الدكتور
علي القريشي
جامعة بغداد ـ مركز إحياء التراث العلمي العربي

سمات وخصائص فكر السيد محمد باقر الصدر قدس سره

المدرس الدكتور
علي القريشي
جامعة بغداد ـ مركز إحياء التراث العلمي العربي

مقدمة:ـ

إن الدارس لما قدمه المفكر الإسلامي السيد محمد باقر الصدر (١٩٣١م-١٩٨٠م) من فكر وطروحات ومعالجات في العديد من المجالات المعرفية والعلمية الإسلامية أو الإنسانية يمكنه ان يتلمس جملة من السمات والخصائص التي تميز بها هذا المفكر والعالم الكبير.

وفي إطار التحليل ورصد المؤشرات وتشخيص الاتجاهات والمنهج يمكن التوصل إلى طبيعة ما ينطوي عليه فكر الصدر من سمات وخصائص جديرة بالتسجيل.

سمات وخصائص الفكر الصدري: التشخيص والقيمة:ـ

إن الهوية المعرفية للمفكر يمكن استجلائها من خلال استقراء ما يتسم به فكره من سمات وخصائص عامة وبتشخيصها وتعيينها يمكن تقويم فكر ذلك المفكر وإبراز مدى قيمته.

وبخصوص السيد الصدر، إذا ما تابعنا خطابه الفكري والعلمي سنجده يتميز بجملة من الخصائص والسمات من أبرزها:

١. **التأصيل الشرعي**: يشكل الإيمان بالإسلام - مسلمات وأصول ورؤية شاملة حول الكون والإنسان والحياة - القاعدة الأساسية لفلسفة الصدر

ولمجمل رؤاه وصياغاته الفكرية واكتشافاته النظرية واستنباطاته الفقهية وما يصدره من أحكام واجتهادات وحلول لمواجهة المتغيرات والإشكاليات الجديدة.

وهو بهذه الخاصية فقيه شرعي ومفكر إسلامي بامتياز.

٢. **المنهجية العلمية:** يعتمد الصدر في مقارباته على المنهجية العلمية التي لا تتحكم فيها الأهواء الذاتية أو الإحكام التعسفية أو اللغة الشعارية أو العاطفية، وهو حين يختار المنهج في معالجة قضية ما يختار ما يتناسب مع طبيعة الموضوع دون محاكاة ما يعتمده الآخرون. وكان يعي ما يختار أو ما يبتكره من مناهج، كما في إدخاله لغة الاستقراء وحساب الاحتمالات التي صاغ منها منهجاً جديداً في الفقه والحديث والأصول والتاريخ[1].

وقد أكد رسوخ هذه الميزة في فكر الصدر ومعالجاته حتى عند تناوله على نحو نقدي، ولم يستطع احد نكران أنه في كل كتاباته بعيد عن السطحية والتحيز والانفعال، وهذا ما كان يمنح فكره - وبشهادة الكثير- القوة والرصانة والموضوعية.

٣. **الخاصية الفلسفية:** تنطوي مقاربات الصدر الفكرية على خاصية التفكير الفلسفي المتمثلة بالشك والتقصي والفحص الدقيق وممارسة النقد والتقويم، وانتهاج أسلوب التحليل والتركيب، وطرح التساؤلات عن الشيء: لماذا حدث؟ وعدم الاكتفاء بسؤال: كيف حدث؟. ولهذا تشبعت كتاباته بالنزعة التأملية، وكان التأمل يأخذ المساحة الأوسع من أوقاته "وقد يكون هذا أحد أسباب الإبداع في انتاجاته العلمية وما يُرى فيها من تميز ظاهر، فهو لم يجعل نفسه وعاء لأفكار الآخرين يستنسخها

في ذاكرته فقط، بل يفحص كل شيء بموضوعية ودقة منقطعة النظير، فما هو حق فيها يستدل له، وما هو باطل يستدل عليه"(٢).

والحقيقة ان هذه النزعة عُرف بها طالباً وكاتباً ومدرساً ومجتهداً، وكان فيما يطرحه من إشكالات وتساؤلات جادة أمام أساتذته مثار الدهشة والإعجاب.

لقد هيئته ذهنيته المتوقدة وفكره الخلاق لأن يكون مبدعاً، وكثيراً ما كان يتجاوز الفكر التقليدي فيما يقدمه من أفكار واجتهادات.

كما أن فكره اتسم بالشمولية، فهو يتناول الموضوعات من أوجه متعددة في إطار من التحليل العميق والاتساق وعدم التناقض(٣).

وعموماً كانت كتاباته سواء في الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد أو حتى في العلوم الشرعية تأخذ تلك السمة الفلسفية، الأمر الذي يجعل من بحوثه أقرب ما تكون إلى فلسفة العلوم، فهي في الاجتماع فلسفة في الاجتماع، وفي السياسة فلسفة في السياسة، وفي الاقتصاد فلسفة في الاقتصاد، وفي الفقه والأصول فلسفة في الفقه والأصول، ولعل هذه الصبغة تسود معظم كتاباته.

٤. **الروح النقدية:** اتصالاً بالسمة السابقة أمتاز الصدر بنزعته النقدية التي تتجلى بمقارباته التحليلية، وإعادة القراءة، وإبداء الآراء الجديدة، وكشف ما هو غير مكشوف، فكان بكل ذلك مستقلاً وغير تقليدياً.

وقد كانت لدى الصدر منذ وقت مبكر آراء نقدية لدروس المنطق وعلوم الفقه والأصول والتفسير والحديث سواء في متونها الشيعية أو السنية، لا يواكبها مُسلّماً وبتعامل معها بمنهج يقوم على الفحص والتحليل والمراجعة والتقويم.

وبهذه النزعة انتقل بالفقه من طابعه التجريدي أو الافتراضي إلى طابعه الواقعي، كما انتقل به من التمحور حول الفرد والانشغال بالإحكام الفردية

إلى الفقه الذي يهتم بأحكام الجماعة ولا يتعامل مع الفرد -حتى مع الإقرار بخصوصية- إلا بوصفه جزءاً من الجماعة(٤).

ومن هنا تميز خطابه بالقدرة على اقتحام الموضوعات المختلفة وتوليد الأفكار الجديدة في الوقت الذي ظل فيه منفتحاً على باب الحداثة والمعاصرة، وبما جعله متقدماً على الكثيرين.

٥. **استحضار البعد السيكولوجي:** من السمات الأخرى التي يمكن تلمسها في كتابات الصدر استحضار البعد السيكولوجي حين يكون بحاجة إلى تجلية الجوانب الداخلية للسلوك الإنساني في حقوله وأوجهه المختلفة.

ففي تحليله لحقيقة الإدراك وحقيقة المحتوى الداخلي للعمليات العقلية أهتم بالجانب النفسي وذلك في سياق ما أسماه بـ"فلسفة النفس" أو"علم النفس الفلسفي"(٥).

كما استحضر هذا البعد في مجال الفقه والفتوى باعتبار أن "الأحكام الشرعية - كما يقول حسن حنفي - لها أسس نفسية، فالوجوب والحضر نفسيان، واللغة لها مدلول نفسي، بل أن الأدلة الشرعية الظنية كالخبر والإجماع والسيرة المتشرعة والدليل اللفظي تقل ظنيتها باليقين الوجداني"(٦). وهذا ما كان يدركه الصدر الذي يرى بأن المواقف الفقهية تختفي وراءها الحالة النفسية للفقيه، لهذا كان يستخدم التحليل النفسي كأداة غير متداولة في البحث الأصولي(٧).

بل حتى على مستوى دلاله الألفاظ والمفاهيم في إطار بحوث علم الأصول كان يستحضر البعد المذكور، ويرى ضرورة الربط بين اللفظ والمتكلم، ويقول: أن المهم "بصورة أساسية أن نكتشف مراد المتكلم، أي المدلول

النفسي للفظ"[٨]. أما على صعيد دراسة النظم الاجتماعية، فقد كان يستخدم المدخل النفسي إيماناً منه بأن الظواهر والموضوعات والقضايا الاجتماعية لا تتشكل بتأثير عامل واحد، فللاجتماع بعد نفسي، وللسياسة والاقتصاد والتاريخ وغيرها أبعاد نفسية، ومن ثم فلبناء النظم الاجتماعية أبعاد نفسية، فإذا ما قارنا بين النظم الاقتصادية المختلفة - مثلاً، فـ"يجب - كما يقول الصدر- ان لا نقيم مقارنتنا على أساس المعطيات النظرية لكل واحد من تلك المناهج (أي النظم) فحسب، بل لابد ان نلاحظ بدقة الظروف الموضوعية للأمة وتركيبها النفسي" فالمركب الحضاري ومشاعر الأمة ونفسيتها تشكل أسساً موضوعية في عملية البناء الاقتصادي أياً كانت المنطلقات النظرية أو المذهبية لذلك البناء[٩].

وهذا البعد واضح في صياغة فكرة التغيري، وهو الذي يدرك ان التغيير النفسي هو الأساس القاعدي للتغيير الاجتماعي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

والحقيقة أن اهتمام الصدر بهذا البعد نابع من نظرته التكاملية للإنسان والمعرفة، وإدراكه ان العنصر النفسي يشكل قاسماً مشتركاً للسلوك عبر مجالاته وفعالياته المختلفة، فالتصرفات الإنسانية تنطوي بحكم الطبيعة التكوينية على ظاهر وباطن، وهي حقيقة لا ينبغي إغفالها في أية دراسة سلوكية أو إنسانية.

٦. **الاستطرادات التربوية:** في كتاباته الفلسفية والاجتماعية والسياسية، وكما في تحليلاته النفسية ثمة استطرادات تأخذ طابعاً تربوياً، فحين يتابع الموضوعات يقف أحياناً على هامشها أو في اختتامها وقفات توجيهية تكسب خطابه مضموناً أو دلالة تربوية.

حتى وهو يصوغ لغة الفتاوى وأسلوبها يستبطن هذا الجانب أو يستهدفه أحياناً على نحو مقصود، وهذا يعود إلى كونه مفكراً رسالياً يحمل مشروعاً تغييرياً، لذلك يقترح عند كتابه الرسائل الفقهية العلمية أن "تتقيد بمنهج يسلم في العرض من الناحية الفنية، وتلتزم بلغة مبسطة وحديثة، وتبدأ في العرض من الصفر، وتحاول أن تعرض الأحكام من خلال صورة حية وتطبيقات منتزعة من واقع الحياة وتتجه إلى بيان الحكم الشرعي لما يستجد من وقائع"(١٠).

وهذا ما طبقه عندما كتب رسالته الفقهية التي استهدف في أسلوب كتابتها عنصر التوضيح، وفي الوقت نفسه تعليم طلبة العلوم الشرعية كيفية استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية.

وفضلاً عن ذلك، فأن وظيفته عالماً ومعلماً في مدارس الحوزة قد ولّد لديه الاهتمام بالإصلاح التعليمي سواء على صعيد تطوير المناهج أو الأساليب أو النظم أو غير ذلك مما يتصل بالشأن التربوي والتعليمي، وكان في كل ذلك - وعلى نحو ما بيناه سابقاً- مجدداً وصاحب إضافات مشهودة.

٧. **الرؤية التكاملية:** انطلاقاً من تكاملية الإسلام وتوازن معالجاته تأسس فكر الصدر وتحرك ضمن مسار التكامل، فهو حين يتحدث عن الدنيا لا ينسى الآخرة، وحين يتحدث عن الآخرة لا يلغي الدنيا، وحين يربي روحياً لا يدعو إلى نبذ المطالب الحسية والمادية، فنظرته نحو الإنسان سواء من جهة تكوينه أو من جهة حاجاته نظرة تكاملية تنعكس بدورها على طبيعة فكره المتصل ببناء الشخصية الإنسانية.

كما أنه حين يستنبط الإحكام ويبلور المفاهيم المؤسسية للنظام الاجتماعي العام تتشابك تلك الأحكام والمفاهيم وتتعاضد في عمليات البناء في أوجهها

المختلفة،فالتي تؤسس لبناء النظام الاجتماعي تتعاضد وتتكامل مع التي تؤسس للبناء الاقتصادي، وهكذا يتداور التعضيد والتكميل ولا يطغى وجه على آخر ولا يستقل أو ينفصل جانب على جانب.

لقد "أفاد السيد الصدر كثيراً من منهجية القراءة المعرفية التي تتميز بالبنائية - في مقارباته القرآنية - فلم يتعاط مع أية مفردة من مفردات أي حقل معرفي أو فكري قرآني دون أن يضعها في الإطار العلائقي لذلك الحقل، فعقلية الصدر ليست عقلية تجميعية – كمية، بل تتميز بالبحث عن الوشائج البينية لأي بناء نظري متسق، بتعبير آخر: استطاع السيد الصدر أن يتجاوز العقلية الفقهية الفتوائية إلى بناء الأطر النظرية،أي انتقل من (فقه الأحكام إلى فقه النظريات) وحينما أراد أن يقنن عملية اكتشاف المذهب الاقتصادي في الإسلام أكد على انه في هذه الحالة ((لا يجدي عرض المفردات فحسب لاكتشاف المذهب- وان اكتنفت بحوث كثيرة من الإسلاميين بهذا القدر- بل يتحتم علينا ان ننجز عملية تركيب بين المفردات، أي: ان ندرس كل واحد منها بوصفه جزءاً من كل، وجانباً من صيغة عامة مترابطة، لننتهي من ذلك إلى اكتشاف القاعدة العامة التي تشع من خلال الكل، أو من خلال المركب وتصلح لتفسيره وتبريره وأما في طريقة العزل والنظرة الانفرادية فلن نصل إلى اكتشاف"(11).

إضافة إلى ذلك نجد ان نظريته التكاملية تبدو واضحة في عمليات إعادة البناء الاجتماعي، حيث جعل التعاضد والتكامل بين العاملين التربوي والقانوني منهجاً في حركة تلكم العمليات. فالتربية تعضد القانون، والقانون يعضد التربية في جدلية قوامها مبدأ ان الإنسان هو المحور وهو الذي يشكل المادة الفاعلة في البناء الاجتماعي، كما أنه الغاية الأساسية لذلك البناء.

وبهذه التكاملية تميز الفكر الصدري بالانسجام والاتساق سواء في تعامله

مع الشخصية الإنسانية أو في بناء النظم أو في تفاعله مع الشؤون الحياتية الأخرى.

٨. **النزعة التجديدية:** على الرغم من التزام الصدر بمسلمات الدين وثوابته وتقيده بالأطر الشرعية وحتى الحوزوية، إلا أن فكره ظل منفتحاً على كل ما هو جديد في الفكر الإنساني، ولم يتوقف عن اكتشاف الغائب من الحقائق، وهو يطرح الأسئلة حتى في دائرة ما هو مسلم به إسلامياً - كما يشير إلى ذلك السيد محمد حسين فضل الله.

وقد شكل بانفتاحه هذا نقلة ذهنية في التفكير الإسلامي، حيث فتح في الوسط الإسلامي الحوزوي أفكار ومفاهيم جديدة، وأثار نقاشات لم تكن مألوفة، فقبله لم تكن معروفة في وسطه أسماء وأفكار عبد الرحمن بدوي وزكي نجيب محمود وهيغل وفورباخ وماركس وانغلز وراسل وكوفالسون وكينز ولابلاس وبرتولي وروجيه غارودي وغيرهم من مفكري الشرق والغرب[١٢].

وكان من منطلق رؤيته التجديدية ينحى باللائمة على ظاهرة الاستصحاب التي عكست حالة التمسك بإنجازات السابقين دون التجرؤ على اقتحام الجديد، وظل يتحرك مجتهداً ومجدداً في الفقه والأصول والحديث والتفسير والأخلاق، فضلاً عن الفلسفة والتعليم، ناهيك عن أفكاره المتقدمة في الدعوة والتغيير، ولم تكن لتمنعه طبيعته المحافظة من أن يقدم الجديد في كل هاتيك الجوانب.

ولعل من أشهر أفكاره في الفقه نظريته حول "منطقة الفراغ التشريعي" التي شكلت رؤية متجددة في إطار الاجتهاد الإسلامي، وكذلك انتقاله بالفقه من فقه الأحكام إلى فقه النظرية.

كما تجلى هذا المنحى فيما أضافه في حقول العلوم الإنسانية من تاريخ واجتماع وفكر سياسي واقتصاد وبنوك وغير ذلك.

ومن هذا كله اتسم خطابه الفكري والعلمي بالديناميكية والحيوية والقدرة على توليد الأفكار وإنتاج النظريات وتقديم المعالجات المبتكرة التي لم يسبقه إليها أحد.

بناء على كل ما تقدم يمكننا القول: ان اجتماع السمات والخصائص التي بيناها في فكر مفكر لا يمكن ألا ان يجعل منه مدرسة تملك روح الاستمرارية والقدرة على المواصلة والتأثير سواء على صعيد المنهج أو طبيعة ما يقدم من أفكار أو نظريات أو رؤى أو اتجاهات.

ولا يقلل من قيمة مدرسة الصدر التي توفرت فيها شروط المدرسة وعناصر الاستمرارية أن تتعرض إلى نقد هنا أو تقويم هناك، فقيمة أية مدرسة تتجلى فيما تثيره حولها من جدل وحوارات.

هوامش البحث

(١) محمد الحسيني: الإمام الصدر، سيرة ذاتية، ضمن: محمد باقر الصدر، مصدر سابق، ص ٦١.

(٢) أحمد أبو زيد العاملي: محمد باقر الصدر، السيرة والمسيرة، ج١، مصدر سابق، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٣) حول خصائص التفسير الفلسفي راجع: د. حسان محمد حسان وزملائه: تيارات في فلسفة التربية، مصدر سابق، ص ١٩-١٠.

(٤) راجع: صائب عبد الحميد: محمد باقر الصدر، تكامل المشروع الفكري والحضاري، مصدر سابق، ص ٥١ - ٦٤.

(٥) راجع: محمد باقر الصدر: فلسفتنا، مصدر سابق، ص ٣٢٥

(٦) د. حسن حنفي: تجديد علم الأصول: قراءة في كتابات الإمام الشهيد محمد باقر الصدر، المنهاج، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٧) د. عبد الجبار الرفاعي: تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية، مصدر سابق، ص١٠.

(٨) محمد باقر الصدر: درس في علم الأصول، مع المعالم الجديدة، ص ١١٩.

(٩) محمد باقر الصدر: اقتصادنا، مصدر سابق، ص ٣٢٥.

(١٠) محمد باقر الصدر: الفتاوى الواضحة وفقاً لمذهب أهل البيت، ج١، مصدر سابق، ص ١٠٦.

(١١) راجع: محمد باقر الصدر: اقتصادنا، مصدر سابق، ص ٣٧٦، وانظر: حسن العمري: إسلامية المعرفة عند السيد محمد باقر الصدر، مصدر سابق ص ٧٢.

(١٢) عبد اللطيف حرز: محمد الصدر وكفاح الجماهير، مصدر سابق، ص ١٣٢.